من المعالم الحضارية في قلب الجزيرة العربية قبل ٢٥٠ عامًا

د. محمد بن سعد الشويعر

لئن كانت قد مرت بالجزيرة عموماً، ونجد خصوصاً فترة مظلمة في نظر المؤرخين خلال الفترة التي تلت دولة الأخيضريين في اليمامة ما بين عام ٢٥٣هـ إلى عام ٣١٧هـ، ثم دولة القرامطة التي اعتمت خلالها سماء المنطقة عن المعلومات المتكاملة تاريخياً، فإن هناك نزراً يسيراً مرتبط بالأحداث التي اقترنت بهذه الحركة التي أقضت مضاجع المسلمين في كل مكان، بأعمالها المشينة، حيث استمرت دولتهم حتى عام ٤٧٠هـ عندما قضى عليها العيونيون في الأحساء(١).

ولا أحد يستطيع الجزم بأن ما بين هذا الوقت وحتى قيام الدولة السعودية الأولى المنظمة

من عام ١١٥٨هـ عندما تصافحت يدا الإمامين محمد بن سعود، ومحمد بن عبدالوهاب رحمهما الله، وتعاهدا على نشر دين الله، وإظهار الحق، وإبعاد الناس عن المزالق العقدية التي وقعوا فيها مثلما وقع فيها كثير من المسلمين في كل مكان، بدعوة دينية إصلاحية لم تكن ذات تأثير خاص بالجزيرة العربية وحدها بل تعدى صداها إلى أنحاء بعيدة من المعمورة.

هذه الفترة لا يجزم أحد، بأنها كانت بمعزل عن الازدهار الحضاري، كما أنني أيضاً لا أستطيع موافقة القائلين — وأكثرهم من الغربيين — بأن منطقة نجد لا يعيش فيها إلا القليل من البدو الرحل، الذين يتقاتلون لأتفه الأسباب، ويسيطر عليهم الجهل والفقر.

فقد كان في المنطقة حواضر كانت ذات شهرة صناعية وزراعية كثرمداء المشهورة بصناعة النسيج والبرد الجيدة التي تضاهي منسوجات صنعاء (٢) حيث يقول حميد بن ثور الشاعر الأموي:

ما بال بردك لم تمسس حواشيه   من ثرمداء ولا صنعاء تحبير

— وسدوس القريبة من الرياض من الناحية الشمالية التي كانت مشهورة بالرمان منذ العصر الأموي وجودته حتى أنه لو خرج منها ألف حمل في يوم واحد لما تأثر ما فيها، وأن الرمانة تباع بدرهم (٣).

— واليمامة.. التي تمثل الرياض قاعدتها — حالياً — كانت غنية بمزارعها حتى أن أول حرب اقتصادية قام بها المسلمون مع المشركين من جهود ثمامة بن أثال الحنفي بعدما أسلم والتزم للرسول ﷺ بذلك وأنه لن يعطي المشركين شيئاً إلا بإذنه، حتى ضجوا وأصابهم الضرّ فلجئوا للرسول ﷺ مستغيثين فرق لهم قلبه وأمر بفك الحصار الاقتصادي عنهم..

— وملهم القريبة من الرياض كانت مشهورة بكثرة النخيل، وجودة المحاصيل، وتغنى بذلك الشعراء من ذلك ما قاله جرير المتوفى عام ١١٠هـ:

كأنَّ حمول الحي زلن بيانع   من الوارد البطحاء من نخل ملهما (٤)

وغير هذا ما جاء عند الهمداني في صفة جزيرة العرب المتوفى عام ٣٣٤هـ، والأصفهاني في بلاد العرب، وياقوت الحموي المتوفى عام ٦٢٦هـ في معجم البلدان، وغيرهم ممن أتى بلقطات تاريخية، تنبىء عن ثمار حضارية جيدة، لا يمكن إلا أن تكون نتاج علم، وثمرة

استقراء وإطلاع . ومن هذا فإنني وغيري من المهتمين والباحثين لا نزال مقتنعين بأن هناك معلومات ما زالت في خفايا التاريخ، إما أن تكون قد ضاعت، مع ما ضاع من تراث العرب والمسلمين في العصور المظلمة، أو ما تزال نائمة وسوف يأتي إن شاء الله من ينهضها من رقدتها التي طالت .

وإن من مهمة الباحث أن يتتبع الآثار، ويستجمع الدلائل، ليعطي الصورة كما تبرز له بالقرائن، وفي هذا البحث الموجز، سوف نلتمس النتائج فيما وجدنا من بعض النصوص، حيث يأتي مع القليل توابع ويضم ما يجده كل باحث، إلى ما سبق إليه، ومن ذلك تتكون الحصيلة . مما يؤيد توفر الكنوز الكثيرة في تراث هذه المنطقة، مما يتطلب مزيداً من الجهد الموفق، وتوسعاً في الاستنتاجات المستنبطة . مما رصد أو قيل في مختلف المجالات.

يقول ابن بشر في عام ١٢٩٠هـ في تاريخه : واعلم أن أهل نجد وعلماءهم القديمين والحديثين، لم يكن لهم عناية بتاريخ أوطانهم، ولا من بناها، ولا ما حدث فيها وسار إليها، إلا نوادر يكتبها بعض علمائهم هي عنها أغنى(٥).

ولما كانت المعالم الحضارية، تعني مظاهر من أعمال الإنسان، فهي تنبيء عن الارتباط بالأرض، وبروز جهوده في إعمارها، والاستقرار في حواضرها، والتوسع في الأعمال التي لا يقدم عليها أبناء البادية المتنقلون مع مواشيهم طلباً للكلأ، وانتجاعاً للموارد المائية . .

وهذا ما سوف نلم به اختصاراً في المعالم التالية :

أولاً : بناء المدن : فقد كثرت الحركة الإنشائية، وإعادة تعمير المدن والقرى، أو بناء أخرى جديدة في الفترة ما بين القرن الثامن الهجري، وحتى بروز دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وهذا ينبيء عن استقرار ووفرة سكانية، وهما من مقومات الحضارة . وفي هذا المقام لن أتعرض لما اكتشف أثرياً، لأنه يسبق الفترة التي نتحدث عنها، ولا لقدم كثير من البلدان والمواقع في نجد كاليمامة وما فيها من بلدان، لكن سأتعرض لحركة جديدة دبت في المنطقة في هذه الفترة، هي حركة بناء المدن أمثال :

١ — عودة مانع المريدي — جد آل سعود — من بلدة الدروع إلى منطقة الدرعية في وادي حنيفة، حيث الخصب ووفرة القرى والزراعة في عام ٨٥٠هـ(٦) وعمرها .

٢ — في عام ٨٥٠هـ يقول ابن عيسى : اشترى حسن بن طوق جد آل معمر العيينة من آل يزيد من بني حنيفة أهل الوصيل والنعمية. ورحل من ملهم ونزلها وعمرها، وتداولها ذريته من بعده (٧).

٣ — كما يذكر ابن عيسى ومقبل الذكير زمن بناء بعض المدن، وإنتقال بعض الأسر إليها من مدن أخرى مثل :

— التويم في منطقة سدير عام ٧٠٠هـ عمرها مدلج بن حسين الوائلي وبنوه وعشيرته منتقلاً من أشيقر (٨).

— لم يحدد ابن عيسى تاريخ انتقال آل أبو ربّاع من التويم إلى حريملاء، لكن صالح بن طعيس عندما نقل هذه القصة، قد ربطها بمجيء يوسف أبو ريشة ومن معه من الشام لإعمار حريملاء ثم عودتهم للشام بعام ٨٩٣هـ (٩).

— يحدد ابن عيسى عام ٧٧٠هـ زمناً لبناء بلدة حرمة، ذلك أن إبراهيم بن حسين ابن مدلج انتقل من التويم إلى موضع حرمه، وهي مياه وآثار منازل قد تعطلت من منازل بني عائذ فعمرها وغرسها هو وبنوه ونزل عنده كثير من قرابته وأتباعه (١٠).

— وفي عام ٨٢٠هـ يذكر ابن عيسى تعمير المجمعة، وأن أول من سكنها عبدالله الشمري، ثم وفد إليه الناس وتكاثروا عنده (١١).

— ذكر العصامي في سمط النجوم العوالي أن الشريف حسين بن أبي نمي جاء من مكة عام ٩٨٦هـ غازياً لبلدة معكال — وهي الآن حي من أحياء مدينة الرياض — وحاصرها فترة من الزمن بخمسين ألف جندي حتى استولى عليها وقتل من أهلها رجالاً وأخذ منهم أموالاً. وأمر في البلد رجلاً يدعى : محمد بن عثمان بن فضل (١٢).

— ويرى الشيخ عبدالله بن خميس في معجم اليمامة : أن بلد جلاجل قد أعيدت عمارتها في مكانها الحالي عام ٧٠٠هـ (١٣).

— ومقبل الذكير المتوفى ١٣٦٠هـ في مخطوطته التاريخية ذكر بناء ثادق، والبكيرية،

ورغبة، والصفرات، وغيرها من البلدان وكلها ما بين القرن العاشر والحادي عشر الهجري(١٤).

- وعن الوشم ينقل الزبيدي المتوفى عام ١٢٠٥هـ في تاج العروس أن أبا عثمان الجرماني زعم أنه ثمانون قرية (١٥).

- وسعد الجنيدل يرى في معجمه — عالية نجد — بأن بلد الشعراء كان في أسفلها قصر لعجل بن حنيتم شيخ قبيلة آل مغيره أن القرن الحادي عشر إلى أن انقرضت دولتهم، وخربت منازلهم(١٦).

- ومحمد العبودي تحدث عن مدن القصيم ومنها: بريدة التي اشتراها راشد الدريبي عام ٩٨٥هـ فعمروها، كما قال بذلك ابن عيسى في عقد الدرر(١٧).

  وعنيزة التي نقل عن الشيخ محمد بن مانع أنها أنشئت عام ٦٣٠هـ (١٨).

- والرس ينقل عن إبراهيم بن ضويان المتوفى عام ١٣٥٣هـ أن أول من سكنه بعد خرابه آل صقية من بني تميم في جلوتهم من أشيقر في حدود المائة التاسعة من الهجرة، ثم باعوه على آل «أبا الحصين»(١٩).

- والدوادمي حيث عثرت على وثيقة خطية بيد إبراهيم بن عيسى بأن أول من اشتراها جهيم في القرن العاشر الهجري (٢٠)، ومثل هذا القويعية التي اشتراها عبدالله بن محمد الملقب الضعيف بعد ما قدم من شقراء (٢١).

ثانياً: العلم والعلماء: رصد الباحثون معلومات متناثرة عن أسر في نجد متكاملة، تعتبر منبع علم، ومجمع معرفة، كما عرفت بلدان بوفرة العلماء، وانتجاع الناس إليها للأخذ من ينابيع العلم مثل:

١ ـ أشيقر التي ازدهرت علمياً خلال هذا التاريخ، وعرفت أسر منها بالعراقة العلمية كعائلة آل بسام الذين انتقلوا للعيينة وعنيزة، وآل شبانة الذين نزحوا للمجمعة، وآل عبدالوهاب الذين منهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب «رحمه الله» الذين انتقلوا للعيينة وحريملاء. وامتد الانتقال إلى الأحساء والخليج والعراق والشام والحرمين الشريفين.

٢ ـ والعيينة استقطبت العلماء حيث أصبحت جامعة يرتادها المئات من رواد العلم والمتطلعين إلى المعرفة ، وأبرز علمائها الشيخ أحمد بن عطوة المتوفى عام ٩٤٨هـ ، وأحمد بن بسام وغيرهما .

وقد تحدث الشيخ عبدالله بن بسام في كتابه : علماء نجد خلال ستة قرون عن الإزدهار العلمي في اشيقر فقال : فهذه المدينة زخرت بالفقهاء ، ووجدوا بها ، حتى كان يجتمع في الوقت الواحد منهم أربعون عالماً كلهم يصلحون للقضاء ، يوم كان القضاء لا يصل إليه إلا فطاحل العلماء وكبارهم(٢٢).

وعن العيينة قال : هذه المدينة وجد بها العلماء وكثروا بها ، ولقد حدثني والدي رحمه الله ، وهو من حفظه التاريخ أن فيها أكثر من ثمانين عالماً يدرسون العلم في جوامعها في زمن واحد(٢٣).

— وقد ترجم ابن بسام في كتابة : علماء نجد في ستة قرون ل ٣٣٨ عالماً منهم ٨٠ عالماً في الزمن الذي نتحدث عنه .

— وكذا القاضي في كتابه : روضة الناظرين عن علماء نجد وحوادث السنين ترجم لـ ٣٥٨ عالماً منهم ٨١ لهذه الفترة .

— وفي مخطوطتي : السحب الوابلة لابن حميد المتوفى عام ١٢٩٠هـ ، ورفع النقاب لإبراهيم بن ضويان المتوفى عام ١٣٥٣هـ معلومات كثيرة عن شخصيات علمية من هذه المنطقة .

— وللأستاذ منصور الرشيد جهود كبيرة في تجميع معلومات عن العلماء ضمن مخطوطته التي تبلغ خمسة أجزاء ذات أثر جيد تروي ظمأ المتتبع للحركة العلمية في وسط الجزيرة العربية قد ذكر بعضها في مقالات له . بالدارة(٢٤).

— ومجمل ما توصلنا إليه من تجميع للعلماء والقضاة ما يلي حسبما استطعنا العثور عليه من مصادر ضنينة :

أولاً : القضاء :

القرن التاسع ٤ ، القرن العاشر ١٣ ، القرن الحادي عشر ٣١، القرن الثاني عشر ٥٣ المجموع ١٠١ .

ثانياً : العلماء :

القرن التاسع ٦ ، القرن العاشر ١٦ ، القرن الحادي عشر ٢٥ ، القرن الثاني عشر ٥٧ المجموع ١٠٤ .

ثالثاً : الذين رحلوا لطلب العلم في الخارج بلغ عددهم ١٧ ، ويعلل الدكتور عبدالله العثيمين إلى أن تناقص عدد طلبة العلم المسافرين للخارج للتزود علمياً ، يرجع إلى أن الفقهاء الحنابلة في داخل نجد قد تكاثر عددهم بسبب الإزدهار العلمي من جهة ومن أخرى إلى قلة فقهاء الحنابلة في الشام والعراق ومصر (٢٥) .

رابعاً : المؤلفات الفقهية التي وصل إلينا علمها في ذلك الوقت ٢٨ مؤلفاً .

خامساً : الذين بدأوا الكتابة التاريخية ، كما أبان عنهم الشيخ حمد الجاسر عن مؤرخي نجد من أهلها فهم ٦ حاولوا الكتابة (٢٦) .

ثالثاً : الكتب وأوقاتها :

الكتب والمكتبات متلازمة مع حاجة العلماء ، لأن الكتاب هو زاد المتعلم ، ورفيق العالم ، ولما لم تكن المطابع متوافرة ، فإن الوسيلة هي الإنكباب على الكتب تداولاً ونسخاً ، وقد عرفت بعض المخطوطات المنبعثة من المنطقة ، وتوافرت بعض المكتبات لدى أسر عرفت بحب العلم ، وشهرة الاقتناء للكتب حتى كانت تضرب إليهم آباط الإبل للفائدة والتزود . . وسوف نذكر توثيقاً للموضوع نماذج من ذلك . .

الكتب المخطوطة :

١ - كتاب التوابين لابن الجوزي خط عام ٧٧٩هـ بقلم عبدالله بن شفيع من أهل أشيقر حسبما ذكر ابن حميد في مخطوطته السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (٢٧) .

٢ - الرد على الجهمية للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كتبه : ابن عنيّق من أهل أشيقر عام ٩٥٦هـ (٢٨) كما جاء في بعض كتب التاريخ ، أن هناك مقتطفات تاريخية

كتبها ابن عنيّق، ولعل وجودها مما ينير الطريق لأشياء جديدة تهم الباحثين في موضوعات عديدة.

٣ ـ شرح ابن عقيل في النحو، على ألفية ابن مالك كتبة بدر بن حمد بن بدر من أهل اشيقر عام ٩٩٣هـ(٢٩).

٤ ـ التبيان في آداب حملة القرآن للنووي كتبه : محمد بن أحمد بن إسماعيل من أهل اشيقر عام ٩٩٣هـ(٣٠).

٥ ـ المطلع على أبواب المقنع لابن مفلح خطه : عبدالرحمن بن أحمد بن إسماعيل من أهل أشيقر عام ١٠٠٦هـ(٣١).

٦ ـ شرح الشنشوري في الفرائض كتبه عبدالله بن محمد بن بسام من اشيقر عام ١٠٤٤هـ(٣٢).

٧ ـ شرح التهذيب في المنطق كتبه الشيخ عبدالله بن أحمد بن عضيب قاضي عنيزة، كما خط كتباً أخرى كثيرة غيره حسبما ذكر ابن حميد، ولكن لم يحدد تاريخ خطه لها إلا أنه قد توفي عام ١١٦١هـ في بداية الدعوة(٣٣).

٨ ـ غاية المنتهى، كتبه : علي بن محمد بن علي بن بسام من اشيقر عام ١٠٦٤هـ(٣٤). وبعد أن طبع هذا الكتاب جاء في الصفحة الأخيرة راموز بخط الشيخ عثمان بن أحمد النجدي، وقد كانت كتابة المذكور لنصفها الأخير عام ١٠٨٥هـ(٣٥).

٩ ـ مناقب الإمام أحمد بن حنبل كتبه محمد بن عبدالله بن سلطان قاضي المجمعة، ولم يعرف تاريخ خطه، لكن المذكور توفي عام ١٠٩٩هـ(٣٦).

١٠ ـ الاقناع في الفقه، بخط إبراهيم بن محمد بن أحمد بن إسماعيل من اشيقر عام ١١٠٨هـ(٣٧).

١١ ـ شرح المنتهى الجزء الثاني بقلم إبراهيم بن أحمد بن يوسف النجدي عام ١١٨٧هـ(٣٨)، وقد وضعته هنا لأن المذكور هجر نجداً إلى دمشق بالشام ولم يستجب للدعوة، وقد تصدر للتدريس بالجامع الأموي حتى قتل فيه.

الأوقاف العلمية : إن ما وصل إلينا علمه على قلته، يعطي مادة خصبة لإبراز صفحات عن ذلك العمق العلمي، والحب في توسيع دائرة الفائدة منه، مما ينبيء عن حقيقة المجتمع وانفعالات النفوس فيه، وما قد يحتاجونه في حياتهم اليومية، وإلمامه بحياتهم الاقتصادية، حسبما يتراءى أمام الدارس لحالة المجتمع وما يدور فيه.

والأوقاف العلمية متنوعة، وأهمها ما يعين الدارس في الحصول على الكتب النادرة في ذلك الوقت حيث ينبعث هذا الإحساس من معرفة وإدراك وعلم ودراية، علاوة على القاعدة العقدية الراسخة والدافع الديني في حب المساعدة والرغبة في الأجر من الله.

وما أوقفه عالمان من نجد، من أوائل ما وصل إلينا خبره، على مدرسة أبي عمر في الصالحية بدمشق نستشف منه:

أ — حب العلماء للمشاركة في نقل العلم للآخرين، وإيصاله إلى أكبر عدد ممكن من الراغبين فيه.

ب — محبة العلماء من هذه المنطقة للعلم طلباً : بالذهاب إلى الشام لتحصيله، مع تجشم المشاق في سبيل ذلك، ومثابرة : بالبقاء أطول مدة هناك لإدراكه، وبذلاً : بتجميع وخط ما تيسر لهم من مصادر علمية. وسخاء وارتباطاً : بايقاف ما يزيد على حاجتهم عند الرغبة في العودة للبلاد لصعوبة الحمل من جهة، ولبعد المسافة ومخاوف الطريق من جهة أخرى.

جـ — حرص هؤلاء العلماء على العودة لبلادهم، بعد إنتهاء فترة تحصيلهم، ليساهموا في البذل من أجل تنوير الأذهان، ورفع مستوى بني جلدتهم.

ولو كانت البلاد لم تنعم بأسباب الحضارة : من هدوء واستقرار، وتوفر لأسباب العيش، لما عادوا من بلاد الشام الغنية بخيراتها، والتي كانت منتجعاً لطلاب العلم آنذاك في الفقه واللغة، وخاصة الفقه الحنبلي.

وأقدم ما وصل إلينا عن تلك الأوقاف العلمية :

١ — أوقف الشيخ والعالم المشهور في العيينة : أحمد بن يحيى بن عطوة المتوفى عام ٩٤٨هـ كتبه على مكتبة أبي عمر في الصالحية بدمشق من ديار الشام.

٢ ـ أوقف معاصره الشيخ : برهان الدين إبراهيم بن محمد بن أبي حميدان وهو من اشيقر

ثلاثة كتب هي : الفروع، والزركشي، والإنصاف.
وهذه تقع في حدود ٤٠ مجلداً. على مدرسة أبي عمر بالصالحية بدمشق أيضاً

وإن من يتصفح ما في خزائن المخطوطات هناك — في دمشق — وفي المكتبة السعودية بالرياض، وفي مكتبة الحرم المكي، ومكتبة المسجد النبوي، ودار الكتب المصرية، ومكتبة جامعة بغداد، ويقابل أسماء من أوقفها، على أسماء من عرف من أهل نجد من العلماء في ذلك الزمان، فإنه سوف يتضح له أشياء كثيرة وخاصة في مكتبات تركيا، والمكتبات التي يملكها أفراد من هنا.

رابعاً : الوصايا :

ذكرابن بشر في تاريخه أن الشيخ عبدالعزيز بن سليمان بن عبدالوهاب قد حبس في حريملاء، ونهب بيته بأمر من القائد التركي في إحدى الحملات على نجد، وأخذ من عنده خزانة كتب عظيمة، فأخذ الزَّلِّيّ قاضي حسين منها أحمالاً، وأشعلوا النارفي باقيها(٢٩)، وهذا يدل على كنوز علمية ضاعت، تنبيء عن معلومات عظيمة، وثروة لا تقدر بثمن.

وفي نظري أن الوصايا والوثائق، والأحكام الشرعية في نجد خلال الفترة التي سبقت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقيام الدولة السعودية الأولى، لو هيىء لما بقي منها واضحاً ومعروفاً. أن يرى النور، فإنه سوف يتضح أمام القارىء معلومات جديدة، تضاف للحصيلة الحضارية : علمياً واجتماعياً وثقافياً. لما تحويه من أفكار، وماتنبيء عنه من معلومات تعكس النظرة الاجتماعية. والإحساس من الموصي إلى ما يؤثر في مجتمعه، ويشغل أذهان بني جلدته. وهي لم ترصد في سجلات المحاكم حتى يمكن الرجوع إليها، لكنها مجعولة في أيدي الوكلاء، ومن يعنيهم التطبيق، ولذا نرى أغلبها قد ضاع، مع ما ضاع من تراث هذه الجزيرة. .

ومن أهم الوصايا التي نشرت، أربع وصايا سنذكرها عرضاً، ولمن أرادها أن يرجع إليها نصاً في مصادرها وهي :

١ ـ وصية صبيح سنة ٧٤٧هـ وهو من اشيقر، وهذه أقدم وصية حتى الآن وصل إلينا علمها، وقد استنتج عبدالعزيز المبارك، وهو الذي عرضها في مجلة العرب، أن هذه الوثيقة تدل على كثرة من يحسن القراءة والكتابة في القرن الثامن الهجري، وعلى كثرة العلماء في هذه الحقبة أيضاً. (٤٠)

٢ ـ وصية صقر بن قطام سنة ٩٤٢هـ وهو من اشيقر أيضاً، حيث حبس و أوقف جميع أملاكه في اشيقر على أشياء منها : غرم السيل أو الجراد، أو كارثة تعم البلد، وما فضل بعد العشر للناظر، فعليه أن يطعمه سماطاً في المسجد في شهر رمضان، وحدد منه أربعين صاعاً تمراً يختص بها الأرامل في بيوتهن كل عام، لمن يشتهين ويستحين، والزِّمن من الرجال الذين لا يطيقون الوصول الطعام(٤١)

٣ ـ وصية رميثة بن قضيب سنة ٩٨٦هـ وهو من اشيقر أيضاً، حيث حبس وأوقف حائط روق الكائن في عقد الدينار في اشيقر الذي شهرته تغني عن تحديده، على مثل الوضع الذي سارت عليه وصية صبيح، ووصية صقر بن قطام.

ومن رأي الكاتب أن الواضح تناسخ العلماء لهذه الوصايا، واحداً بعد آخر خوفاً عليها من التلف، وأن اشيقر كانت تزخر بهم ذلك الوقت(٤٢).

كما استنتج أيضاً أن هؤلاء الثلاثة ليس لهم عقب، وأنهم من طبقة العلماء، لأن نصوص ما تحويه هذه الوصايا ذات عمق ديني وفقهي، وأن المذهب الحنبلي كان سائداً في نجد منذ زمن قديم.

٤ ـ وصية إبراهيم بن سيف الشمري، بتحويل أملاكه في المجمعة إلى مسجد وأوقاف عليه بعد انتقاله من المجمعة وسكناه المدينة المنورة، وهذه الوصية لم يتضح تاريخها، ولكنها سابقة لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، لأن الشيخ محمد عندما ذهب للمدينة لطلب العلم، درس على ابنه عبدالله بن إبراهيم بن سيف الشمري. وقد أشار إلى ذلك الشيخ إبراهيم بن عيسى في : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، أثناء حديثة عن عمران المجمعة في القرن التاسع(٤٣).

خامساً : الإجازات العلمية :

تنبىء الإجازات عن المكانة العلمية للتلميذ حيث ارتفعت، وعن المنزلة العلمية للشيخ، حيث طبقت الآفاق وأصبح علماً يشار إليه بالبنان. مثلما أن الرسائل العلمية في العصر الحاضر، لا تمنحها إلا الجامعات العريقة والمتمكنة، وما نورده هنا نموذجاً، ما هو

إلا إشارات تجمعت جاءت في تراجم بعضهم، أو تعليقات على كتب بعينها، ليثبت بها المجاز أو تلاميذه المكانة العلمية التي وصل إليها، والتي تأتي أحياناً بقلم الشيخ المجيز نفسه، أو إملائه وختمه، وهذه الإجازات هي :

١ — إجازة موسى بن أحمد الحجاوي المتوفى عام ٩٦٠هـ بدمشق، وكان مفتي الحنابلة بالشام لبرهان الدين إبراهيم بن محمد بن أبي حميدان من اشيقر المتوفى في حدود عام ٩٨٠هـ⁽٤٤⁾. وقد اعتبر ابن بشر أن وفاة الحجاوي عام ٩٦٨هـ⁽٤٥⁾.

٢ — إجازة نجم الدين المحدث الفقيه الشافعي : محمد بن أحمد الغيطي، لإبراهيم ابن محمد بن أبي حميدان أيضاً في ١٢ ربيع الأول عام ٩٦٨هـ.

٣ — إجازة مرعي بن يوسف الكرمي لأبي نمي بن عبدالله بن راجح، وقد وصلت هذه الإجازة إلى نجد باشيقر من القاهرة في عام ١٠٢٨هـ بصحبة كتاب غاية المنتهى لمرعي بن يوسف المتوفي عام ١٠٣٣هـ⁽٤٦⁾.

٤ — إجازة الشيخ محمد بن عبدالباقي أبي المواهب، لعبدالله بن إبراهيم بن سيف المتوفى بالمدينة عام ١١٤٠هـ بعد أن انتقل إليها والده من المجمعة، وبدوره الشيخ محمد بن عبدالوهاب رائد الدعوة الإصلاحية في نجد. هذه الإجازة تتكون من حديثين : الحديث الأول : المسلسل بأولوية، والثاني الحديث المسلسل بالحنابلة.

٥ — إجازة الشيخ أحمد بن محمد القصير «من أهل او شيقر» المتوفى في عام ١١١٤هـ لفوزان بن نصرالله المتوفى عام ١١٤٩هـ والإجازة في كتاب المنتهى عام ١٠٩٩هـ.

٦ — إجازة الشيخ أحمد بن محمد القصير، لأحمد بن عثمان بن بسام الحصيني المتوفى عام ١١٣٩هـ والإجازة في كتاب الإقناع.

٧ — إجازة صالح بن عبدالله الصانع من عنيزة المتوفى عام ١١٨٤هـ لسليمان بن إبراهيم الفداغي فيما يرويه عنه.

٨ — إجازة حميدان بن تركي المتوفى عام ١٢٠٣هـ للشيخ عبدالله بن أحمد بن إسماعيل

مـن اشيقر المتـوفى عـام ١١٩٦هــ والإجازة في عـام ١١٧٠هــ فيما يـرويه عـن مشايخه .

وهذه الإجـازة وإن كانت في بـداية أيـام دعوة الشيخ محمـد إلا أنها تعتبر إمتداد للعصر العلمي الذي سبقه .

٩ — إجازة الشيخ إبراهيم بن عبدالله بن سيف الشمري من أحد مشايخه ، ولم يوضح الشيـخ عبدالله بـن بسام تـاريخ هـذه الإجـازة التي أثبـت نتفاً منهـا في ترجمتـه لحياته(٤٧) .

والشيـخ إبراهيـم هذا هـو المشهور بـالفـرضي ، وألف في ذلـك كتاب العـذب الفائض الذي فرغ منه في ٢٢ شعبان سنـة ١١٨٥هـ ، وقد توفى عام ١١٨٩هـ ، قال ابن حميد دفن بالبقيع في المدينة (٤٨) .

١٠ — وإن ما عمله الشيخ أحمد بن محمد المنقور المتـوفى عام ١١٢٥هـ في كتابه الفواكه العديدة في المسائل المفيدة ، والمشهور عنـد علماء نجد باسم : مجموع المنقور ، في نقله عن ٤٦ عالماً ، وأكثر تلك الروايات عن شيخه عبدالله بن ذهلان المتوفى عام ١٠٩٩هــ ، وعن الشيـخ أحمد بن عطـوة المتوفى في العيينـة عام ٩٤٨هــ . . لما ينبىء عن الأسلوب العلمي في نقل العلم وروايتـة والذي لا يزال أثره بارزاً لدى كثير من كبار العلماء في هذه البلاد ، الذين درسـوا في حلقات المشايخ ، وآخرها حلقة الشيخ محمد بن إبراهيـم آل الشيخ المتوفى عام ١٣٨٩هـ رحمه الله ، وحلقة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ، أمد الله في عمره .

الرحلات في طلب العلم :

لأن هذه الرحلات بمثابة البعثات الـدراسية في العصر الحاضر حيث ينهل راغبوا العلم من الموارد العلمية من خارج بلادهم طمعاً في التـوسع ، وقد تعرض الأستاذ منصور الرشيد لذلك ضمن مقال مطوّل في مجلة الـدارة . عن القضاة قبل العهد السعودي الأول في نجد ، وأورد من بينهم أسماء تسعة من كبار العلماء أخذوا علومهم من الشام ومصر وهم المشايخ :

١ — أبو إسحاق برهان الـدين إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بـن سليمان بن أبي يوسف

النجدي الذي توفي في دمشق مقتولاً عام ١٢٠٥هـ.

٢ — أحمد بن يحيى بن عطوة، طلب العلم في الشام ثم عاد إلى نجد وهو من تلاميذ أحمد العسكري، وجمال الدين بن عبدالهادي، والشيخ ابن عطوة هو عالم العيينة ووحيد زمانه توفي عام ٩٤٨هـ بها.

٣ — أحمد بن محمد بن مشرف الذي طلب العلم في الشام وتوفي بنجد عام ١٠١٢هـ وهو من تلاميذ موسى الحجاوي.

٤ — زامل بن سلطان قاضي الرياض الذي رحل للشام فأخذ من موسى الحجاوي، ثم رحل إلى مصر حيث درس على الشيخ محمد بن أحمد الفتوحي عام ٩٧٢هـ.

٥ — عبدالرحمن بن محمد بن ذهلان الذي رحل إلى الشام فأخذ عن الشيخ محمد بن بدرالدين البلباني المتوفى عام ١٠٨٣هـ، وهو أخو الشيخ عبدالله بن ذهلان قاضي الرياض المتوفى عام ١٠٩٩هـ.

٦ — عبدالله بن عبدالوهاب المتوفى عام ١٠٥٦هـ والذي رحل إلى مصر ودرس على الشيخ منصور البهوتي المتوفى عام ١٠٥٢هـ.

٧ — عثمان بن أحمد بن عثمان بن قائد المولود بالعيينة، ثم درس على الشيخ عبدالله بن ذهلان بالرياض ثم رحل إلى دمشق ودرس على الشيخ عبدالحي بن عماد المتوفى عام ١٠٥٩هـ، ودرس أيضاً على الشيخ محمد أبو المواهب. فحصل بينهما خلاف ألجأه للسفر إلى مصر حيث درس على الشيخ محمد الخلوتي وغيره، ثم صار له تلاميذ بالقاهرة بعدما جلس للتدريس بها إلى أن توفي بالقاهرة عام ١٠٩٨هـ.

٨ — فوزان بن نصرالله بن محمد بن مشعاب من قبيلة المشاعيب من سبيع نشأ في حوطة سدير. ودرس في اشيقر على الشيخ أحمد القصير، ثم رحل إلى الشام ودرس على الشيخ عبدالقادر البعلي، وعاد إلى نجد حيث جلس للتدريس، وبها توفي.

٩ — محمد بن عزاز رحل إلى الشام حيث درس على الشيخ كمال الدين الغزي، وقد ذكره أحمد المنقور في مجموعه(٤٩) وغيرهم كثير ممن رحلوا في طلب العلم ومنهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله.

سادساً : الحصون والإقلاع :

يرى الباحث أن التحصينات تأتي في أماكن التجمع السكاني كظاهرة عامة . ويلمس هذا خلال الفترة الزمنية التي سبقت الدعوة، وإن كان ما رصد عنها قليل جداً، إلا أن آثار ذلك بارز في مواقع كثيرة في الحالات التالية :

١ — حصون وقصور محكمة بحسب نوع البناء هناك وهي من خامات البيئة .

٢ — أسوار تحمي المدن والقرى .

٣ — خنادق خلف الأسوار.

٤ — قلاع ومقاصير متكاثرة في الأسوار للمزارع والقرى والقصور، وعلى بوابات المدن، ومنفردة على المرتفعات والممرات المحيطة، أو الموصلة للمدن والقرى .

وفي تتبعي للنتف التاريخية، ومروري ببقايا القرى والمدن التي توسعت مع العمران الحديث والتطور الحضاري الذي تعيشه بلادنا في عهدها الزاهر، فإنني لم أجد قرية أو مدينة بدون سور أو تحصينات حربية . . وسوف نذكر بعض الأسوار، وليس على سبيل الحصر، ليقف القارىء على بعض التواريخ التقريبية في الاهتمام بالتحصينات، علماً بأن هناك حصوناً وأسواراً دمرت ولم يرصد عنها شيء :

١ — سور الدريبي في بريدة بالقصيم. وهو أقدم أسوارها قال عنه محمد العبودي : بأنه منسوب إلى حمود بن عبدالله الدريبي المتوفى عام ١١٥٤هـ، وهو يظهر بريدة صغيرة الحجم ضيقة المساحة (٥٠)، ونستنتج أنه بني في النصف الأول من القرن الثاني عشر.

٢ — أسوار عنيزة التي أشار إليها محمد العبودي، ولكن لم يتضح تاريخ بناء أولها، إلا أن المدينة عمرت عام ٦٣٠هـ، مما يدل على قدم أول أسوارها (٥١).

٣ — سور شقراء الأول، وله عدة أبراج وبوابتان، لم يعرف تاريخ بنائه، لكن البلد نمت واتسعت بعده، حيث تضاعف حجمها قبل بناء السور الثاني، ومعه استحكامات ومقاصير مربعة. وقد بني الأخير لمجابهة حملة إبراهيم باشا ضد الدولة السعودية الأولى سنة ١٢٣٢هـ حيث بني هذا السور الأخير الذي حفر خلفه خندق عميق كما ذكر ابن بشر (٥٢).

٤ — وفي حريملاء يذكر ابن طعيس أن حامي أبو ريشة قد بني في العقدين الأخرين من القرن التاسع الهجري من الحجر وعروق الطين ثم تلاه سور الحسيان في النصف الثاني من القرن الحادي عشر (٥٣).

٥ — ومن ينظر في بقايا سور التويم في سدير، وسماكة بنائه يدرك أن هذا السور قد عاصر الصراع بينها وبين جلاجل في القرن الحادي عشر كما ذكر ابن بشر والفاخري، وابن عيسى في الحوادث التاريخية عند كل منهم أو قبله، وأن ضخامة هذا السور ليدل على قوة دفاعية، ووفرة سكانية في البلد(٥٤).

٦ — وهناك أسوار لا بد أن تكون سبقت تاريخ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كثير من البلدان التي تأسست ونمت وتكاثر سكانها في زمن مبكر مثل : المجمعة، حرمة، جلاجل، ثرمداء منفوحة، ملهم وغيرها من مدن وقرى نجد.

أما القصور والقلاع الحامية لها بأركانها الأربعة، وتعرف باسم مربّعة، أو تنصب على بوابات ومداخل المدن، فهو تقليد دفاعي روماني، وأخذه العرب عنهم بعد الفتوحات الإسلامية، لكن العرب أدخلوا عليه من التحسينات الدفاعية، ما يتلاءم مع طبيعة الحياة عندهم، فهي متوفرة جداً وبكثرة فقد روعي هذا باستحكام على مختلف المستويات، وفي التجمعات الزراعية، حيث تجعل القلاع إلى داخل الحصن، ويشملها اسم قصر وله باب واحد يغلق من الداخل، وتقام عليه الحراسة . . وإن مما جرت به العادة ضمن الاستحكامات العسكرية، المحافظة على التموين، وخاصة المياه التي جرت العادة بالاحتفاظ بكميات كبيرة منها في داخل القصور والقلاع، حيث جاء الاهتمام بالآبار وحفرها في وسط الحصون، وهذه العادة قديمة قدم الحاجة للحصون، فهذا الهمداني يقول عن فلج — الأفلاج : وفي جوف السوق مائتان وستون بئراً ماؤها عذب فرات، يشاكل ماء السماء ولا يغيض (٥٥)، كما يذكر هو والأصفهاني في صفة جزيرة العرب، وبلاد العرب، وناصر خسرو في رحلته المسماه سفرنامه في القرن الخامس الهجري أوصافاً وتوضيحاً للحصون والقلاع والآبار في وسط بلاد العرب.

سابعا : المعادن والصناعة : ذكر الهمداني في كتابة صفة جزيرة العرب أسماء أماكن عرفت بأنها معادن تبلغ هذه المعادن مقرونة بأسمائها ٢٢ موضعاً (٥٦)، وأمكن أماكن التعدين في اليمامة «منطقة الرياض حالياً»، حيث سكنتها قبائل عرفت بإمتهان الصناعة كباهلة وبني أسد مثلاً، كما ذكر الأصفهاني في كتابة بلاد العرب، ما يقرب من ثلاثين موضعاً للمعادن، ومثل هذا البكري في كتابه معجم ما استعجم، والهمداني في كتابه الجوهرتين، وهذا مما يدل على أهمية المعادن والصناعة لدى العرب قديماً. وقد رأى الشيخ حمد الجاسر أن أسباب ذلك ترجع إلى أن بلداً هذا شأنه يكون أهله أقرب إلى التحضر، وإلى مزاولة الأعمال والحياة الحضرية، ثم يستخلص إلى أن القبيلة كلما كانت حياتها أقرب إلى التحضر، إما لخصوبة أرضها، أو لكثرة المعادن فيها، أو لغير ذلك من الأسباب، فإنها لا تجد غضاضة في ممارسة الصناعة، كما في بني سليم وباهلة، وقبائل ربيعة الذين استوطنوا اليمامة(٥٧).

ويذكر ابن حوقل في كتابة صورة الأرض، المتوفى عام ٣٨٠هـ : أن اليمامة كانت قراراً لربيعة ومضر، فلما نزل بنو الأخيضر باليمامة، جلت العرب إلى جزيرة مصر، فسكنوا بين النيل وبحر القلزم «البحر الأحمر»، وهم أهل معدن الذهب، وإقامتهم عليه في أمور سآتي على ذكرها في أماكنها، وليس في الحجاز بعد مكة والمدينة، أكبر من اليمامة (٥٨).

كما اهتم المستشرقون بهذا الجانب، فهذا المستشرق الألماني ترنهارد موريتس المتوفى عام ١٩٣٩م قد ألف رسالة سماها : المعادن في البلادالعربية القديمة، وقد ترجمها الدكتور أمين رويحة ونشرها في مجلة العرب، وعلق عليها الشيخ حمد الجاسر (٥٩).

وقد دفعت هذه الرسالة علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر، إلى التوسع في مقالات ضافية عن المعادن في جزيرة العرب بعد ذلك، نشرها في مجلة العرب، وأبان فيها أن مواقع الذهب القديمة تبلغ ١٦٥ موقعاً، ذكر أسماءها وحدد مواقعها بخط الطول والعرض.

ومثل ذلك مواقع الفضة التي تبلغ ٢١ موقعاً، ومناجم النحاس التي تبلغ ٢٨ منجماً، ورواسب الحديد التي تبلغ ١١ موقعاً، ورواسب الكروم واحداً(٦٠).

ثم تحدث عن بعض المعادن المعروفة قديماً، بذكر أسمائها ومواقعها وتقريبها للناس في العصر الحاضر، وأبان عن ٧٠ معدناً أغلبها في نجد (٦١).

والعرب يستدلون على المعادن بعلاماتها الظاهرة، كبروز بعضها واضحة للعيان في الأحجار، وقد اكتسبوا لطول المعاناة معرفة بمواقع الذهب والفضة، في الأحجار التي تكثر فيها، وكانوا يتخذون من وجود أحجار المرو، وخاصة عندما تكون عروقاً ممتدة في الأرض، أو في الجبال، علامة لوجود المعدن، وكانوا يتتبعون تلك العروق بالحفر عنها وتكسيرها، واستعمال الوسائل التي يعرفونها لاستخلاص الذهب والفضة (٦٢).

وقال لقد وجدت بعض الآثار التي تدل على طحن التربة، لاستخلاص الذهب أو الفضة، كالرّحى التي صورت في كتاب توتيشل، الذي جاء على رأس شركة مساهمة تألفت في المملكة عام ١٩٣٤م الموافق لعام ١٣٥٣هـ للبحث عن المعادن باسم : نقابة التعدين العربية السعودية (٦٣).

وقد حاول رشدي ملحس تجميع معلومات عن المعادن في بلاد العرب في بداية المعجم الذي استهله بالحجاز ونجد، حيث تحدث عنه، وعن فكرته في جريدة أم القرى التي كان يعمل بها آنذاك ولا شك أن تلك المناجم والمعادن نتج عنها صناعات مختلفة في مجالات الحياة، فيما يتعلق بها كمواد خام، وفيما تحركه من صناعات أخرى عرفت في المنطقة واحتاج إليها السكان.

— ولقد عرف الوشم بصفة عامة، وبلدة ثرمداء بصفة خاصة، بنسج البرود، وهي نوع من الأكسية الجيدة، وبلغت تلك الصناعة شأواً كبيراً، تعدت حدود الإنتاج المحلي إلى الشهرة والتصدير إلى البلدان الأخرى، وقد ذكر ياقوت الحموي المتوفى عام ٦٢٦هـ هذه الشهرة، في كتابه معجم البلدان، عن حميد بن ثور الهلالي، الذي قال له أبوه :

ما بال برديك لم تمسس حواشيه   من ثرمداء ولا صنعاء تحبير (٦٤)

وقد علّق مقبل الذكير في مخطوطته التاريخية على نسبة البرود إلى ثرمداء بقوله : أما ما وصف الهلالي من نسبة البرود إلى ثرمداء، فهذا مما لا شك فيه، فقد كان يعمل ذلك إلى مدة ليست بعيدة وقد كان الوشم مشهوراً بالنسيج من الخامات والصوف إلى مدة لا تبعد أكثر من مائتي سنة، وقد أخذ يضعف هذا العمل، حتى تلاشى قبل مائة سنة، حتى فقد تماماً(٦٥).

ولما كانت الحكمة تقول : إن الحاجة هي أم الإختراع، فإن حاجة السكان استلزمت

الصناعات العديدة من الجلود والأصواف، التي تصنع منها الملابس، وفرش الأطفال والرجال ومراكب الدواب، ولحفظ الأطعمة والأشربة، والجرار الكبيرة لحفظ الطعام والتمور والعسل والسمن، لأنها تتحمله مدة أطول بدون أن يتعرض للفساد. إضافة للصناعات الحديدية للاستعمال اليومي لتوفر المعادن أو تركيباً كيماوياً للعلاج والكحل، علاوة على ما يتفرع عن منتوجات أشجار النخيل المتوفرة بكثرة من حصر وفرش ومكاتل وغيرها.

وقد أشار إلى هذا الشيخ حمد الجاسر ضمن مقال عن المعادن في نجد، ولفت النظر إلى أن أستاذاً تونسياً قد جعل رسالته العلمية في بون بألمانيا باسم: المناجم في القرون الوسطى. وأماكن وجودها في البلاد العربية نال بها الدكتوراه، وتقع في ١٣٥ صفحة جمع فيها حصيلة كبيرة عن التعدين في وسط الجزيرة العربية(٦٦).

ثامناً: صناعة الأسلحة:

إن إطلاق القين على قبائل عديدة من العرب مثل: باهلة، بنو أسد، وقبيلة من بلي، وقبيلة من بني سليم، . وقبيلة من قضاعة، وقبيلة من قيس غيلان (٦٧) لما يدل على اشتغالهم بالحدادة، واصطلائهم بالنيران التي تصهر الحديد، لأن القين في التعريف اللغوي هو الحداد، ولا يصطلى بالنار غالباً في الصناعات إلا من يشتغل بصناعة الأسلحة التي تحتاج إلى صهر جيد، وضرب مكين لتزداد جودة ومتانة، سواء كان المضروب سيوفاً، أو رؤوس رماح أو غيرهما.

وعندما نعود لكتب اللغة نرى اقتراناً بين بعض الأسلحة ومسمياتها، وبين الأماكن التي صنعت فيها، ففي بلاد العرب كانت نجد واليمن: موضعين مشهورين لصناعة الأسلحة،

— فالسيوف الحنيفية، يرجح أنها منسوبة إلى قبيلة بني حنيفة التي كانت منازلها منطقة الرياض وما حولها، وقاعدتها حجر اليمامة الذي تحتله الرياض حالياً.

— ويقول الدكتور عبدالله السيف في كتابه: الحياة الإقتصادية والإجتماعية في نجد والحجاز، في العصر الأموي، إن حجر اليمامة كانت مشهورة بجودة رماحها(٦٨).

— أما ناصر خسرو فقد ذكر في رحلته التي مرّ فيها بالأفلاج واليمامة عام ٤٤٤هـ أن

المدينة والسوق، حيث يتوفر صناع من كل نوع يقعان خارج الحصن الكبير القديم في حاضرة اليمامة وهي حجر (٦٩)، مما يؤكد امتدادجذور الصناعة فيها منذ الجاهلية، ثم امتدادها لما بعده بزمن طويل.

ويقول صاحب اللمع : والبارود عندهم — يعني أهل نجد — شيئاً كثيراً، وبارودهم أطيب بارود، فلا يحتاج أهل نجد إلى جلب البارود لهم من ملك آخر، ولكن بعد أن تعلموه، صارت الحالة هذا الزمان، بأن يذهب من نجد إلى بقية جزيرة العرب، لأنه أطيب بارود(٧٠).

— ويقول في موضع آخر : وأيضاً من جملة أحوالهم أن أكثرهم يستعمل التفق والبندوق «البندقية» لكن صفة تفقهم أنه غير ذي خزنة، وأن أخشابه كأخشاب تفق الروياتي، على هذا الأسلوب والطرز، وله فتيلة وهذا يصنع في نجد، وكان قبل ذلك يصنع تفق أدنى من ذلك في نجد، وأخشابه متينة وطرحه غير حسن، وله خزنة، وكان قليل الوجود في نجد . . ويستفيض في وصف هذا النوع وجودته واهتمامهم بصناعته وتحسينه (٧١).

— أنه قد عرف بأن القذائف كانت تصنع من البارود والفضة، بدل البارود والرصاص، لتوفر مناجم الفضة، وقلة مناجم الرصاص، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فلأنهم يرون أن الفضة أمكن في الهدف الحربي، لأن الرصاص يبرد، كما أنه أثقل من الفضة، وهذا لم يأت إلا نتيجة تجارب. وفي الأشعار العربية، والعامية أوصاف وتعبيئات لأنواع ومسميات بالأسلحة، حيث تكثر الإشارة بها في الحروب، ووقت الحماسة، مما يبرهن على أهمية كبيرة بالأسلحة وصناعتها . بأنواع عديدة ومطورة منها.

تاسعاً : مظاهر عامة :

لقد أعانني الله في جمع بعض المعلومات عن مظاهر الحضارة في الدرعية، إبان الدولة السعودية الأولى، وهي وإن كانت قصيرة في العمر الزمني بالنسبة للتاريخ إلا أنها جيدة الإنطلاقة. مكينة الجذور، مما يدل على أنها كانت ذات علاقة وطيدة بالزمن الذي قبلها، وأنها اتسعت مع الدعوة الإصلاحية وتنظيم الدولة رغم كثرة الخصوم، وقد نشر هذا البحث في ملف الثقافة الصادر عن جمعية الثقافة والفنون بالرياض العدد الثالث عام ١٤٠١هـ(٧٢). وهذا يعطينا فكرة بأن حكم كثير من الكاتبين عن المنطقة بأنها أماكن بادية

تتجمع عند نزول المطر بمواشيها، وتتفرق عند الجفاف، ويتقاتلون عند أماكن الرعي، ولا تراث لهم غير الشعر بأن هذا الحكم خاطىء في مجموعه إذْ في الجانب الآخر، وجه حضاري، ومدن تزخر بالعلماء والإنتاج الفكري. وإن آفة هذا الإنتاج، وعدم معرفة ما يتبعها من ثمار، هي العزلة التي تفرضها الأوضاع المختلفة التي مرت بالمنطقة داخلياً وخارجياً.

وهناك آفة أخرى، وهي أن بيوتات العلم، لا يرثها علماء، فتأتي بضاعتهم في أيدي من لا يحسن رعايتها، فتضيع، يلمس الكثير من ذلك من الظواهر العامة، وما يستفيض على ألسنة الناس من حكايات.

ثم هناك آفة ثالثة، وهي إزالة المعالم وطمس مظاهرها، من قبل المتغلبين عسكرياً، مما يمحو العلوم، ويقضي على الجهود والنتائج، ويدفع العلماء وذوي القدرة على الهجرة للبلدان المجاورة ومن ثم الاستيطان، والانقطاع عن البيئة الأم. ويدخل في هذا الحكم الحزازات بين الأسر والقبائل. وإن مما يلمسه الدارس لأوضاع نجد، في الفترة التي نتحدث عنها، أن هناك اهتماماً بالحاجات المحلية صناعياً ومعمارياً إلى جانب الرغبة العلمية وملازمة العلماء للأخذ عنهم في أوقات الفراغ، وإن كان هذا الأخذ مقتصراً على العلوم الشرعية، وبعض اللمحات التاريخية.. إلاّ أن هناك لقطات يستشف منها بعض المعالم الحضارية، التي تكشف عن أسرار دفينة مثل:

١ — بعض القلاع التي تقام على المدن والقرى لحمايتها، وللسيطرة على منافذ الطرق، وهي وإن كانت من أهم المستلزمات الحضارية، وحمايتها، فإنها سمة بارزة في جميع بلدان وقرى نجد، بل الجزيرة العربية بأكملها، كما هي الحال في كل مكان.

٢ — الإهتمام بالقصور كمركز للقوة في كل بلد، وبسقوطها تنتقل السلطة لجهة أخرى، حيث يلمس هذا في جميع ما رصد تاريخياً عن المنطقة خلال هذه المدة وما بعدها.

٣ — بناء مجار للعيون، للحفاظ على المياه والإستفادة منها كما في بلدة العيينة والخرج واليمامة «الرياض وما حولها» والأفلاج، وسدوس وملهم القريبتين من بعضهما ومن غيرهما.. و إقامة عبّارات المياه على الأودية وتوزيعها على البساتين والقرى

وإثبات قسّاميات المياه بالناحية الشرعية، والاهتمام بالسدود وتصريف مياه الأمطار.

٤ — ثم ظاهرة ما يلمسه المهتمون بالآثار، من وجود أوانٍ مختلفة منحوتة من الحجارة، الجميلة المنقوشة، بأشكال هندسية بديعة، منها ما يستعمل لخزن المياه، وللسقيا ومنها الصغير الذي يستعمل مصباحاً للوقود، أو لهرس أنواع الأغذية وغيرها من استعمالات البيئة . . وينحت بشكل بديع، وتحسينات فنية دقيقة.

كل هذا ينبيء عن حرفة يدوية دقيقة وشاقة، وتوفر أيد فنية ماهرة وهي من معالم الحضارة والموجهة لها.

٥ — وفي بعض قرى نجد لا يعدم الباحث وجود بقايا أسوار عريضة ومتينة، تحاكي ما كنا نسمع عن الأسوار تاريخياً في بلاد المسلمين في آسيا وشمال أفريقيا، لكنها هنا من الطين الحر، والتراب المخلوط به، ولذا لم تعش كما عاشت غيرها في البلاد الحجرية، وهذه الأسوار تحصن القرى، ويحكم قفلها بأبواب جيدة وقويّة. هذا من جانب ومن جانب آخر فإن الغالب يبدأ بهدم السور تعبيراً عن إذلاله للمغلوب.

٦ — وفي القرى المتحضرة، نماذج من البيوت والمساجد تمتاز بأنواع من الهندسة المعمارية، والإنطلاق من الطابع الإسلامي القديم، مما يؤكد اتصال الثقافة وامتداد الحضارة. من حيث الشكل المعماري. والجمال الهندسي، وضبط القبلة، والعناية بالمحاريب، والعلامات المعنية لضبط الوقت ومعرفة الفصول، ومسارات الشمس والنجوم وغيرها من اهتمامات علمية ترتبط بالعبادات وتعين على ضبط أوقاتها وفصول السنة التي ينظمون حياتهم الزراعية بموجبها.

٧ — واختم حديثي بما يروى عن مدينة الرياض من الخصب، ووفرة السكان لإتساع رقعة الأرض المزروعة، مما يتناقله كبار السن ولم يرصد بعد، أو أنه رصد ولم يصل إلينا، وهذا امتداد لمكانة حجر اليمامة بخيراتها وعيونها منذ العصر الجاهلي، وصدر الإسلام، كما أبان ذلك الشيخ حمد الجاسر في كتابه عن الرياض، عبر أطوار التاريخ:

١ — فقد كان وادي حنيفة : من العيينة حتى الخرج في مسار يزيد على ١٣٠كم علاوة على روافده عبارة عن مزرعة واحدة، لاتصال المزارع ببعضها، مما يدل على كثرة الخصب، ووفرة المياه وتزايد الساكنين فيه. فقد ذكر سادلير في رحلته عام ١٢٣٤هـ شهر أغسطس أن نهر الدرعية كان يجري ويعني بذلك هذا الوادي(٧٣)، كما أفاد عن وفرة المطر ذلك الشهر مع أنه ليس موسمه المعهود لدى الناس.

ومما يقرّب هذا للأذهان ما نلمسه في عهدنا الحاضر، من امتداد المزارع في هذا الوادي وفروعه، وكثرة السدود عليه، حتى يكاد يلتئم على طول امتداده.

٢ — كان بالرياض — حجر اليمامة — عدة عيون وقنوات تسقي المزارع المنتشرة شرق هذا الوادي في القرى المتناثرة التي شمل مسمى الرياض أغلبها.

وفي حفريات مدينة الرياض التوسيعية أشياء من هذا، فأذكر عندما كنت صغيراً في حدود عام ١٣٧٤هـ ثم ما بعده، عندما بدأ التوسع يشمل شوارع الرياض الداخلية : الظهيرة، السويلم، دخنة، مصدّه، العطايف، أنني كنت أرى جوانب من هذه القنوات المطمورة التي ظهرت معالمها مع الحفر. ومن ذلك ما وقفت عليه في ملتقى شارع الرّيس مع شارع مصدّة، امتداد شارع العطايف جنوباً، قرب مسجد أم ماجد، أن العمال ظهر لهم تحت الأرض ما يشبه الغرفة الصغيرة، أو البركة المحكمة الطي، ولها مجارٍ غرباً وشرقاً، وجدوا بها إناء به، وبجانبه متبعثر في الأرض، عملات ذهبية قديمة، لم أدرك كنهها ذلك الوقت.

٣ — وفي حدود عام ١٣٧٩هـ بشّر الملك سعود رحمه الله، بأن واحداً من سكان الملز البحر الأحمر، وجد عيناً مائية، وكان الحديث بين تصديق وتكذيب وتعليل، وفي الحديث عن الموضوع كان في المجلس شيخ وقور من عائلة آل فارس، وبيته بيت علم واهتمام، فقال عندما سئل عن هذه الظاهرة : إننا نسمع بالاستفاضة، بأنه كان قديماً في منطقة أبي مخروق، وما حول هذا الجبل منبع عين، لكن لا نعرف تاريخ ذلك، ولا متى توقفت هذه العين، وقد اهتم كل من الشيخ حمد الجاسر في تتبعه وكتابته عن المنطقة بمجلة العرب، وما صدر عن دار اليمامة من كتب تاريخية مهمة، والشيخ عبدالله بن خميس في معجم

اليمامة وتاريخها . والدكتور عبدالله العثيمين في دراسته وتحليله للشعر العامي ، بوصفه سجلاً للناس ، وراصداً لأحداثهم ، وغيرهم ممن تابع وكتب عن المنطقة . .

هؤلاء جميعاً أحسنوا صنعاً في جهودهم وأعمالهم ، إلا أن الذي ينقصنا هو الرصد التاريخي ، والتحديد الزمني للفترة التي سبقت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، وقيام الدولة السعودية الأولى بدءاً بعام ١١٥٨ هـ . . وإن الميدان لواسع لكل من يأتي فيه بجديد موثق ، لأن ما يصل ما هو إلا تجميع لما تبعثر ، ولمّ لشتات ناقص يحتاج إلى المزيد من الجهد والمتابعة . . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

●●●

الهوامش

(١) راجع مجلة العرب للشيخ حمد الجاسر ج ٩ س ٥ ص ٧٨٦ .

(٢) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٢ ص ٧٦ . وانظر مخطوطة مقبل الذكير التاريخية ورقة ٦٦ الوجه الأيمن حيث قال وثرمداء لا تزال مشهورة بكثرة النسيج إلى ما يقرب من مائة عام أي سنة ١٢٥٠هـ .

(٣) راجع مخطوطة الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي للدكتور عبدالله السيف ورقة ٤٩ .

(٤) راجع معجم البلدان لياقوت الحموي : ٥ : ١٩٦ .

(٥) انظر مقدمة عنوان المجد أ : ١٤ .

(٦) راجع عنوان المجد في تاريخ نجد ١ : ٢٤٥ ، ١ : ٢٤ ، وتاريخ القاخري ص ٦٠ .

(٧) راجع تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد لابن عيسى بإشراف الشيخ حمد الجاسر ص ٣٥ .

(٨) نفس المصدر ص ٢٨ — ٣١ .

(٩) انظر كتابة حريملاء ص ١٩ — ٢٢ .

(١٠) تاريخ بعض الحوادث ص ٣١ .

(١١) نفس المصدر ص ٣٢ — ٣٥ .

(١٢) راجع أحداث هذه السنة ، وكتاب الرياض للشيخ حمد الجاسر ص ٨٨ .

(١٣) انظر جـ ١ ص ٢٧٣ .

(١٤) راجع صفحات من هذه المخطوطة .

(١٥) تاج العروس ٩ : ٩٤ .

(١٦) انظر ٢ : ٧٦٢ .

(١٧) انظر المعجم ٢ : ٤٧٣ ، وعقد الدرر ص ٧٥ .

(١٨) انظر المعجم ٤ : ١٧٤٦ .

(١٩) نفس المصدر ٤ : ١٦٤٦ .

(٢٠) راجع كتابنا شقراء ص ١٩١ .

(٢١) نفس المصدر ص ١٩٦ — ١٩٧ .

(٢٣) راجع علماء نجد ١ : ٧ — ٢٤ .

(٢٤) نفس المصدر ١ : ١٥ .

(٢٥) الدارة شوال سنة ١٣٩٨هـ العدد الثالث ص ٣٤ .

(٢٦) راجع مقالته في الدارة العدد الثالث شوال سنة ١٣٩٨هـ .

(٢٧) راجع مجلة العرب المجلدة الأجزاء ٩ ، ١٠ ، ١١ .

(٢٨) راجع ترجمة عبدالله بن شفيع في هذه المخطوطة .

(٢٩) مخطوطة علماء نجد قبل الدعوة للشيخ منصور الرشيد .

(٣٠) علماء نجد في ستة قرون ١ : ٢١٠ .

(٣٢) نفس المصدر٣ : ٧٨٨ .

(٣٣) نفس المصدر ٢ : ٣٨٤ .

(٣٤) نفس المصدر ٢ : ٦١٦ .

(٣٥) مخطوطة السحب الوابلة ورقة ١٣١ الوجه الثاني .

(٣٦) علماء نجد في ستة قرون٣ : ٧٢٥ .

(٣٧) غاية المنتهى ط ٢ منشورات المؤسسة السعيدية بالرياض .

(٣٨) ذكره الأستاذ منصور الرشيد في مخطوطته : علماء نجد قبل الدعوة .

(٣٩) علماء نجد في ستة قرون ١ : ١٣٨ .

(٤٠) عنوان المجد ١ : ٣٠٢ .

(٤١) نفس المصدر ١ : ١٠١ .

(٤٢) راجع نص هذه الوصية وتحليل عنها في مجلة العرب ج ١ م ٢ ص ٥١ — ٥٩ .

(٤٣) راجع نص هذه الوصية وتحليل عنها في مجلة العرب ج ٦ م ٢ ص ٥٥٤ — ٥٦٠ .

(٤٤) راجع مجلة العرب ج ٦ م ٢ ص ٥٦٠ — ٥٦١ .

(٤٥) راجع هذا الكتاب ص ٣٤ .

(٤٦) راجع ترجمة الحجاوي ومراجعها في الأعلام للزركلي٨ ك ٢٦٧ .

(٤٧) «عنوان المجد ٢ : ١٩٤ وانظر نص الإجازة في مجموع المنقور ٢ : ٣٨٩ — ٣٩١ .

(٤٨) ترجمة الشيخ مرعي في مقدمة كتاب غاية المنتهى .

(٤٩) علماء نجد في ستة قرون ١ : ١٣٥ .

(٥٠) انظر مجلة الدارة العدد الثاني السنة الرابعة رجب عام ١٣٩٨هـ ص ١٦ — ٣٣ .

(٥١) انظر كتابة المعجم الجغرافي — بلاد القصيم٢ : ٤٨٦ .

(٥٢) نفس المصدر ٤ : ١٦٤٦.

(٥٣) انظر كتابنا شقراء ص ٥٠ — ٥٨، وعنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر ط ٤، ٢ : ٣٨٩.

(٥٤) انظر كتابة حريملاء ص ٦٠ — ٦١.

(٥٥) راجع سوابق ابن بشر وتاريخ الفاخري في الأحداث بين البلدتين.

(٥٦) راجع هذا الكتاب تحقيق الأكوع ٢٩٠ — ٣٠٠.

(٥٧) انظر مجلة العرب ج ٩ م٢ ص ٨٠٨ — ٨٠٩. ضمن مقال المعادن القديمة في بلاد العرب.

(٥٨) انظر كتاب صورة الأرض ص ٣٧.

(٥٩) راجع مجلة العرب ج ٧ م ٢ ص ٥٨٠ — ٥٩٢.

(٦٠) راجع مجلة العرب ج٩ س ٢ ص ٨١٢ — ٨٢٣.

(٦١) السابق ص ٨٢٣ — ٨٤٦. ومقالتيه عن المعادن ج ١٠ م ٢ ص ٩٠٧ — ٩٢٦، وج ١١ م ٢ ص ٩٧٨ — ١٠٠٢.

(٦٢) انظر مجلة العرب ج٩ م ٢ ص ٨١١.

(٦٣) راجع مجلة العرب ج ١٠ م ٢ص ٩٢٢ — ٩٢٥.

(٦٤) راجع جريدة أم القرى العدد ٣١٣ الحجة ١٣٤٩/٧/١٥هـ. الجريدة الرسمية

(٦٥) انظرمعجم البلدان ج٢ ص ٧٦.

(٦٦) راجع مخطوطته عن نجد ورقة ١٧٠.

(٦٧) راجع مجلة العرب ج ٩ م ٢ص ٨٠٥ — ٨٢٦. ووصف هذه الرسالة في العرب السنة الأولى ص ٦٦٢ — ٦٦٧.

(٦٨) القاموس ٤ : ٢٦٢ العرب ج ٩ م ٢ ص ٨٠٩.

(٦٩) راجع هذا الكتاب ص ١١٩ — ١٢٠، ولسان العرب ٥ : ٢٤١ — ٢٤٣.

(٧٠) انظر سفر نامة ص ١٤١.

(٧١) انظر لمع الشهاب ص٨٩

(٧٢) راجع ذالك العدد ص٢٥ ـ ٥٦.

(٧٣) انظر لمع الشهاب ص ١٩٠.

(٧٤) راجع كتاب هذا باسم رحلة عبر الجزيرة العربية عام ١٩١٨م ترجمة أنس الرفاعي ص ٨٦، وانظر من ص ٧٥ إلى ص ٨٧.

مصادر البحث

أولاً : المخطوطات :

١ — الحياة الإقتصادية والإجتماعية في نجد للدكتور عبدالله السيف.

٢ — السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة لمحمد بن عبدالله بن حميد.

٣ — علماء نجد قبل الدعوة. للشيخ منصور الرشيد.
٤ — مخطوطة مقبل الذكير التاريخية، مقبل الذكير.

ثانيا الدوريات والصحف :

٥ — جريدة أم القرى تصدر بمكة العدد ٣١٣ الجمعة ١٥/ ٧ سنة ١٣٤٩هـ.
٦ — الدارة : مجلة دورية تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز بالرياض.
٧ — العرب : مجلة شهرية تصدر عن دار اليمامة بالرياض صاحبها الشيخ حمد الجاسر.
٨ — ملف الثقافة والفنون : نشرة دورية تصدر عن جمعية الثقافة والفنون بالرياض.

ثالثاً : الكتب :

٩ — بعض الحوادث الواقعة في نجد لابن عيسى بإشراف الشيخ حمد الجاسر الطبعة الأولى دار اليمامة بالرياض.
١٠ — بلاد العرب للأصفهاني تحقيق الدكتور صالح العلي والشيخ حمد الجاسر نشر دار اليمامة بالرياض عام ١٣٨٨هـ.
١١ — تاريخ الفاخري لمحد بن عمر الفاخري تحقيق د. عبدالله الشبل طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض الطبعة الأولى.
١٢ — تاريخ اليمامة للشيخ عبدالله بن خميس الطبعة الأولى بالرياض عام ١٤٠٧ — ١٤٠٨هـ.
١٣ — الجوهرتين العتيقتين للهمداني أعده للنشر وراجعه الشيخ حمد الجاسر عن دار اليمامة بالرياض عام ١٤٠٨هـ.
١٤ — حريملاء الجزء الأول لصالح بن ناصر بن طعيس الطبعة الأولى الرياض عام ١٣٩٩هـ.
١٥ — رحلة عبر الجزيرة العربية لسادلير الإنجليزي : ترجمة أنس الرفاعي طباعة دمشق ونشر سويسرا دار الفكر الطبعة الأولى عام ١٤٠٣هـ. . والنص الإنجليزي طباعة بومباي الهند عام ١٨٤٦م.
١٦ — سفرنامة : رحلة ناصر خسرو وترجمة وتحقيق د. يحيى الخشاب منشورات دار الكتاب الجديد القاهرة.
١٧ — شقراء لمحمد الشويعر الطبعة الأولى الرياض منشورات دار الناصر عام ١٤٠٥هـ.
١٨ — صفة جزيرة العرب للهمداني، تحقيق محمد الأكوع عناية ونشر دار اليمامة بالرياض لصاحبها

الشيخ حمد الجاسر عام ١٣٩٧هـ.

١٩ — صورة الأرض لابن حوقل، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان عام ١٨٧٩م.

٢٠ — عقد الدرر للشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف الطبعة الأولى على نفقة وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية.

٢١ — عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر الطبعة الثالثة مزيدة ومحققة من منشورات دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام ١٤٠٣هـ.

٢٢ — علماء نجد في ستة قرون للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن بسام الطبعة الأولى مكة المكرمة مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة عام ١٣٩٧هـ.

٢٣ — غاية المنتهى في الفقه الحنبلي طبعة ونشر المؤسسة السعيدية بالرياض الطبعة الثانية.

٢٤ — الفواكه العديدة في المسائل المفيدة للشيخ أحمد بن منقور عام ١٣٩٩هـ على نفقة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالعزيز المنقور الطبعة الثانية نشر دار الآفاق الجديدة بيروت.

٢٥ — لمع الشهاب لمؤلف مجهول طبع ونشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام ١٣٩٧هـ.

٢٦ — مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ للشيخ حمد الجاسر منشورات دار اليمامة بالرياض الطبعة الأولى عام ١٣٨٠هـ.

رابعاً : المعاجم :

٢٧ — الأعلام لخير الدين الزركلي الطبعة الثانية مطبعة كوستاتسوماس وشركاه عام ١٣٧٤هـ.

٢٨ — معجم البلدان لياقوت الحموي منشورات دار صادر بيروت عام ١٣٩٧هـ.

٢٩ — تاج العروس لمحمد مرتضى الزبيدي منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان نسخة مصورة.

٣٠ — المعجم الجغرافي : لبلاد القصيم لمحمد بن ناصر العبودي منشورات دار اليمامة بالرياض الطبعة الأولى عام ١٣٩٩هـ.

٣١ — المعجم الجغرافي : عالية نجد لسعد بن عبدالله بن جنيدل منشورات دار اليمامة بالرياض الطبعة الأولى عام ١٣٩٩هـ.

٣٢ — القاموس المحيط للفيروز أبادي الطبعة الأولى المؤسسة الحسينية القاهرة سنة ١٣٣٠هـ.

٣٣ — لسان العرب لابن منظور طبعة مصورة عن طبعة بولاق — الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٣٤ — معجم اليمامة لعبدالله بن خميس طبع على نفقة سمو الأمير سلطان بن عبدالعزيز في مطابع الفرزدق.

٣٥ — ملف الثقافة والمرقم٨ .